السنة العشرون وأربع مئة

فيها وقع بالعراق بَرَدٌ في الواحدة مئةٌ وخمسون رطلاً، كانت كالثور النائم، ونزلت في الأرض مقدار ذراع.

وفيها قَبَضَ جلالُ الدولة على وزيره عميد الدولة، وبعث إلى القادر يقول: أرسِلْ من يتسلَّمه. فقال القادر: وكيف بأيماننا التي حلفناها له؟ هذا ممَّا لا يجوز فِعْلُه، والصوابُ إطلاقُه. فلم يفعل، فركب الأتراكُ إلى دار المملكة وهجموها، وصاحوا، واجتمع الناسُ، فخرج الملكُ والوزيرُ معه، فقالوا له: قد عَدلْتَ أيُّها الملكُ عمَّا كنتَ قررَّته معنا في الإحسان إلى هذا الوزير، ولم تَفِ بيمينك التي حلفْتَ. فقال: إنما أمسكتُه عندي ليقوم لكم بمالكم، ولأفاوضه في أمورٍ. فجذبوه من يدِه، وعبروا به إلى داره بالجانب الغربيِّ، واستبشر الجندُ والرعيةُ بخلاصه؛ لأنه كان محسناً إليهم، وطالبوه بالمال، فقال: أجِّلوني أياماً وأحمِلُه إليكم. فدَعَوا له، وجلسَ في داره، وأصبح الجندُ والإسْفَهسلارية، فراسلوا الملك بأن يخرج إلى واسط ويُقيم بها ليجمع المال، فإن العرب قد استولوا على البلاد، فأرسل إليهم: لا بُدَّ من الاجتماع بأكابركم لنُقرِّرَ الأحوالَ، فاستشعروا منه، وبلغهم أنه قد استمالَ الأصاغِرَ من التُّركِ، وقد اتَّفقوا على الأكابر، فراسلوه في ذلك، فأنكر وحلف، فصدَّقوه، وشرع الوزيرُ في مصادرات الكُتَّاب والحُجَّابِ، ومات جماعةٌ منهم تحت الضرب، وخلع الملكُ على الوزير خِلْعةَ الوزراء؛ ليمحوَ آثارَ ما فعلَ من اعتقاله.

وفيه فسدَ الحالُ بين قِرواشٍ صاحبِ الموصل وأبي نصر بن مروان صاحبِ ميَّافارقين، وسببُه أنَّ قِرواشاً زوَّج ابنتَه أبا نصرٍ، وحملَها إليه، فأقامت عنده مدةً فأضارها وهجرها، فكتبت إلى أبيها تطلب نقلها إليه، فنقلها، ثم كتب أبو المنيع إلى نصر يطلب صداقَها عشرين ألف دينار، ويطلب منه نَصيبين، وجمعَ جمعاً كبيراً [من الأكراد وغيرهم، ونزل برقعيد][1] بمرج الروم، وبعث قِرواشٌ فحاصر نَصيبين، فقاتله مَنْ بها، وطال عليه الأمرُ، وضاقت به المِيرةُ، فقال أبو الحسن بن الجُلْبان

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

لابن مروان: لا طاقةَ لكَ بهذا الرجل، فاجعل المِنَّة لكَ عليه. فقبِلَ منه، وأعطاه نَصيبين، ومِنْ صَداقِ ابنتِه عشرةَ آلاف دينار، واصطلحا.

وفي جمادى الآخرة وردَ الخبرُ بأنَّ محمود بن سُبُكْتِكين نزل الريَّ، وقبض على مجدِ الدولة أبي طالب بن فخر الدولة وولدِه أبي دُلَف، وأَسَرَ [رؤساءَ] الدَّيلم ووجوهَهم، وورد كتابُ حسام الدولة ابن أبي الشوارب إلى حاجِبِ الحُجَّاب أبي المُظفَّر في هذا المعنى يقول فيه: كتابي هذا من ظاهر قَرْميسين يتضمَّن حصولَ صاحبِ خراسان بجرجان وولدِه مسعود بالريِّ، وقبضَه على مجد الدولة بن فخر الدولة، واستيلاءَه على البلاد، وأنهما سائران إلى بغداد، وهم في خمسين ألف فارس، ومعهم مئتا فيل، وأربعون ألف حمارة، عليها خزائن السلاح، وكان مجد الدولة قد أطلق النظر في أمور دولته، وكل ذلك إلى السيدة والدته، واشتغل هو بالنسخ والدفاتر، وصرفَ زمانَه كلَّه إلى ذلك وإلى النساء، حتى جعل لنفسه خيولاً من الجوار، وكانت السيدةُ والدتُه تُراعي الأمورَ، وتُباشر الحروبَ، ولها هيبةٌ قائمةٌ، وسطوةٌ مخوفةٌ، فتوفِّيت في السنة الماضية، فانحلَّ النِّظام، وطمع فيه الدَّيلم، وزادوا في الشغْب، وتمادَوا في الطلب، فضاق صدرُه بما يسمعه ويُلاقيه منهم، وكانت معه بقيةٌ من المال والجواهر الذي خلَّفه أبوه، وكان وزيرُه أبو العلاء بن كليل لا يُوصِلُ إلى الجند إلَّا ما يأخذه من المصادرات، مع تسلُّطِ الدَّيلم، ورفعِهم الحشمة، فدعَتْ فخرَ الدولة الضرورةُ إلى أنْ كاتبَ محمود بن سُبُكْتِكين يشكو ما هو فيه، ويبذلُ الطاعة، وإقامةَ الخُطبة، وأن يتولَّى تدبير أمورِه، فطمع محمود في أعمال الريِّ، وكان قد ورد نيسابور بسبب الأتراك، فإن طائفةً منهم أفسدوا في البلاد، وجاء إلى جُرجان فنزل بظاهرها، وانصرف منوجهر بن قابوس بن وَشْمكير من بين يديه خوفاً منه، وأقام له الضيافاتِ والهدايا، وحمل إليه ثلاث مئة ألف دينار، واعتذرَ عن حضوره، ووقف الأمر، وبعث محمودٌ إلى فخر الدولة رسالةً مع فقيهٍ يقول: أنت أيها الأمير بين جندٍ قد فارقوا طاعتَك، وخرقوا هيبتَك، وملكوا عليكَ أمرَك، وحالوا بينك وبين رأيِكَ، وهذا السلطان المُعظَّم يعتقد فيكَ الجميل، وناظِرٌ في حقِّك، وإذا رجعتَ إلى رأيه كنتَ واحداً من أولادِه، وزوَّجَكَ إحدى بناتِه، وشملَكَ من ظِلِّه ما ينتظم به أمرُكَ، ويخافه

أعداؤك. فقال: أنا عبدُهُ مهما فعل، فقد رضيتُ به على هذا الشرط. وعاد الفقيه إلى محمود فأخبره، فأرسل مُقدَّمَ عساكره أبا الحسن عليًّا خشاوند في عدَّةٍ كبيرةٍ من العسكر إلى الريِّ، فخرج مجدُ الدولة لتلقِّيه على القاعدة المقرَّرة مع الفقيه، ومعه طائفةٌ من وجوه الدَّيلم، فلقيه بظاهر الريِّ وقد ضرب خيمةً، فقال: تنزل فيها لننظر في الأمر، فأحسَّ بالغدر، وامتنع من النزول، فقال له عليٌّ: لا تخَفْ، نحن ما جِئْنا إلَّا لنصرِكَ وخدمتِكَ. فنزل، فقبض عليه وعلى ولده الأكبر أبي دُلَف، وانهزم الدَّيلم، وورد محمود بعد أيام، وخرج الدَّيلم لاستقباله، فقبض على أكابرهم، وقتل بعضَهم، وصلب آخرين، وأرسل إلى فخر الدولة يطلب المال، فأنكر، فضربه مقارع، وأخذ منه ما قيمتُه ألف ألف دينار، وصادر الحاشية وشتَّتهم قتلاً وأسراً، وأخذ أموالهم، وبعث بأعيانهم إلى خراسان، وبعث مجدَ الدولة وابنَه أبا دُلَف إلى بعضِ قلاع خُراسان مُضيِّقاً عليه، وقتل الوزيرُ أبو العلاء نفسَه؛ لأنه طُولِبَ بمالٍ لم يكُنْ عنده، وكان الذي حمل فخر الدولة إلى خُراسان ملك الهند، فقال له في الطريق: هل لعبتَ بالشِّطرنج قَطُّ؟ قال: نعم. قال: هل رأيتَ شاهاً يدخلُ على شاه؟ وما الذي حملك على أن سلَّمتَ نفسَك إلى هذا الملك؟.

ولمَّا بلغ محموداً قتلُ الوزيرَ نفسَه، قال: لعنَهُ الله، أهلك نفسَه، وشنَّع علينا. وقد كان محمود في تلك الليلة رفع المطالبةَ عنه، وأمر له بالخِلَع السنيَّة، ولمَّا فارق مجدُ الدولة الريَّ قال الشاعر(١): [من الطويل]

لنا مَلِكٌ ما فيه للمُلْكِ آلةٌ سوى أنه يومَ السَّلامِ(٢) مُتوَّجُ
أُقيمَ لإصلاحِ الورى وهْوَ فاسِدٌ وكيفَ استواءُ الظلِّ والعودُ أعوَجُ

وكتب محمود إلى القادر كتاباً من الريِّ، منه: أصدر العبدُ كتابَه من معسكره بظاهر الريِّ غُرَّة جمادى الأولى سنة عشرين وأربع مئة، وقد أزال الله عن أهل تلك البقعة أيدي الظلمة، وطهَّرها من دعوةِ الباطنيَّةِ الكفَرَةِ، والمبتدعةِ الفَجَرة، فالحَقُّ في أكنافها باهرُ الأنوار، والباطلُ في أرجائها دائرُ الآثار، وقد تناهت إلى الحضرةِ المُقدَّسة حقيقةُ الحال ممَّا قصَّرَ العبدُ عليه سعيَه واجتهادَه، من غَزوِ أهل الكفر والضلال، وقَمْعِ مَنْ

---

(١) قائله الحسين بن علي بن هندو كما في يتيمة الدهر ٥/ ١٦٠، وعيون الأنباء ١/ ٤٣٤.

(٢) المثبت من (ف) وعيون الأنباء، وفي باقي النسخ: السلاح.

نبغ ببلاد خُراسانَ، وصَقْع المولتان من الفئة الباطنية الفجَّار، حتى خلَتْ بقاع الهند والسند من فراعنة أغتامها[١]، وطُهِّرت من عُبَّاد أصنامها، وبُدِّد من الباطنية في البلادِ والممالكِ المعصومةِ برأيه وحسامه الموكولة إلى نقضه وإبرامه كلُّ شملٍ كاد يلتَئِم، وفُرِّق كلُّ جمعٍ كاد ينتظِم، وتشرَّد الناجون منهم إلى أبعد الأقطار، وتساقطوا إلى أغمض البقاع وأبرح الأمصار، وكانت مدينةُ الريِّ من بين البلاد مخصوصةً بالتجائهم إليها، واجتماعِهم بها، وإعلانهم فيها بالدعاء، إلى كفرِهم وإلحادِهم وغيِّهم وفسادِهم، يختلطون بالمعتزلةِ المبتدعةِ والغاليةِ والروافضِ المخالفةِ للكتاب والسنة، فيُجاهرون بشتم الخلفاء الراشدين من الصحابة، ويُسِرُّون اعتقادَ الكفر ومذهبَ الإباحة، وكان زعيمهم رستم بن علي الدَّيلمي ـ يعني فخر الدولة ـ يُحيي عادةَ سلَفِه من المحاماةِ عليهم، والموافقةِ لهم، لا ينكر عليهم قولاً ولا فعلاً، ولا يُغيِّر فيهم مثالاً ولا رسماً، قد نصَّبوه بينهم صنماً كالأصنام، واقتسموا مملكتهم فيما بينهم، قِسمة الجزور بالأزلام، وكان العبدُ يعزم على هذا الجهاد، فيحول القضاءُ بينه وبين المراد، فحين بلغ الكتابُ أجلَه، واستكملَ منتهاه وأملَه، سار العبد بالعسكر نحو جُرجان، وتوقَّف بها إلى انصراف كلَبِ الشتاء، ثم سار منها إلى الدامغان، ووجَّه غالِباً الحاجبَ في مُقدِّمة العساكر إلى الريِّ، فأحاط بها في نهار الاثنين التاسع من جمادى الأولى، وبرز رستم بن علي من وِجاره[٢] على حكم الاستسلام، فقبض عليه وعلى أعيان الباطنية من قُوَّداه، وخرج الدَّيالمة من خيامهم معترفين بذنوبهم، شاهدين على نفوسهم بالكفر والرفض، فبرِئَتْ منهم الذمَّة، وحلَّت بهم النِّقمة، وبَرِمَتْ بهم النِّعمة حين أساؤوا جوارَها، ونفرَتْ عنهم العامَّةُ حين أغفلوا مقدارَها، واستعفَتْ من ألقابهم المنابرُ، واشتاقَتْ إلى قَتْلِهم وصَلْبِهم القلوبُ والنواظر، وحين رُجِعَ إلى الفقهاء والأعيان في تعرُّف أحوالِهم ـ بعد ما عمَّتْ منهم أنواعُ الأذيَّة، ووضح من إقدامهم على هَتْكِ المحارِم، وسَفْكِ الدماء واغتصابِ لأموال طبقات الرعية، فاتفقت فتاواهم على أنَّ جميع الدَّيالمة داخلون في أهل الفساد، مستمِرُّون على السرقة والغارة

(١) جمع غُتْمي: وهو الذي لا يُفصح في منطقه معجم متن اللغة ٤/ ٢٦٧ .

(٢) الوِجَار: جحر الضبع والذئب ونحوهما. المعجم الوسيط (وجر).

والعِناد، خارجون عن طاعة واليهم في عامة الأحوال، غاصبون لصنوف الأموال، وأنه يجب عليهم القطعُ والقتلُ والنفيُ على مقدار جناياتهم، ومراتب حالاتهم، هذا إذا لم يكونوا من أهل الإلحاد، فكيف واعتقادهم يؤول إلى الفساد؛ لأنهم لا يَعْدون ثلاثةَ أوجهٍ تسوَدُّ بها الوجوهُ يومَ القيامة: الإلحاد، والرفض، وخُبْث الباطن، لا يُقيمون الصلاةَ، ولا يُؤتون الزكاةَ، ولا يعرفون شرائطَ الإسلام، ولا يُميِّزون بين الحلال والحرام، وأنَّ الأكثر من هذه الطوائف يُقلِّدون في الكلام مذاهب الاعتزال، ويتكثَّرون بهذا الانتحال، وأن الباطنيَّةَ منهم لا يؤمنون باللهِ وملائكتهِ وكتبِه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ والثوابِ والعقاب، وأنَّهم يعتقدون ذلك من مخاريق الحكماء، ويعتقدون مذهب الإباحة في الفروج والدماء، فحكَمَ الفُقهاء عليهم بما ذكرنا، وحكموا بأنَّ رستم بن علي كان يُظهر التسنُّنَ في مذهبه، ويتميَّز به عن سلفه، إلَّا أنَّ في حياله زيادةً على خمسين[1] امرأة من الحرائر، وَلَدْنَ له ثلاثةً وثلاثين نفساً من الذكور والإناث، ولمَّا سُئِلَ عن هذا ذَكَرَ أنَّ الرسم الجاري لسلفه في ارتباط الحرائر، وكان مستمراً على هذه الجملة، فاعترف بأنَّ أمرَ الدَّيلم لم يكن أَسَدَّ، وأنَّهم ما كانوا في دينهم على بصيرة، وأنَّ هذا مذهب المزدكية وأهل التناسخ، ولمَّا أفتى الفقهاءُ بقتْلِهم وصَلْبِهم، ونفيِهم صُلِبوا على شوارع مدينةٍ طالَما ملكوها غصباً، واقتسموا أموالها نهباً، فأمسوا هباءً منثوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وحُمِلَ رستم بن علي وابنُه وجماعةٌ من الدَّيالمة إلى خُراسان في الاحتياط التام، وضَمَّ إليه أعيانَ المعتزلة والغُلاةَ من الروافض، ليَسْلَم من فتنتهم وإغوائهم الخاصُّ والعامُّ، ونظَرَ فيما احتجزه رستُم لنفسه، فعُثِرَ من الجواهر على ما يقارب قيمتُه خمسُ مئة ألف دينار، ومن النقد على مئتين وستين ألف دينار، ومن الذهبيات والفضيات على ما بلغ قيمتُه ثلاثين ألف دينار، ومن أنواع الثياب النسيج والثياب الفاخرة على خمسة آلاف ثوب وثلاث مئة ثوب، وأُحرِقَ من الكتب خمسون حملاً من كتب الفلاسفة والمعتزلة والنجوم والمبتدعة تحت خُشُبِ المُصَلِّين، وخلَتِ البُقعةُ من دُعاة البدع، وانتصرتِ السُّنَّةُ وقد كانت من وراء حجاب، وخمدَتْ نيرانُ الكفر من هذا الجناب، وخرسَتِ الألسنُ عن سبِّ الصحابة

(١) بعدها في (ف) زيادة: ألف، وهذه الزيادة ليست في المنتظم ١٥/ ١٩٦، ولا في تاريخ الإسلام ٩/ ١٨٨.

بعد الانطلاق، واختصَّ العبد بشرف هذه الفضيلة من بين ملوك الآفاق، وطالعَ العبدُ بحقيقةِ ما يسَّره الله تعالى من هذا الفتح العظيم، وإباحة ما يسَّره الله تعالى لأنصار الدولة القاهرة، أدامَ الله لها السموَّ والبسطة، والعلوَّ والرفعة، وأمضى شرقاً وغرباً أحكامَه، ونصرَ برًّا وبحراً أعلامَه.

وفي رمضان عاد محمود بن سُبُكْتِكين من الريِّ إلى خراسان، واستخلفَ بالريِّ ولدَه أبا سعيد مسعوداً.

وفيها جمع القادر كتاباً فيه أحاديثُ رسول الله ﷺ، والردُّ على المبتدعة، وفِسْقُ من يقول بخلق القرآن، وفي آخره مواعظُ وزواجرُ، وجُمِعَ القُضاةُ والعلماءُ والأعيانُ، وقُرئ عليهم في داره، وكان يخطب بجامع براثا خطيبٌ يذكر مثالبَ الصحابة، فقبض القادرُ عليه، وتقدَّم إلى أبي منصور بن تمام الخطيبُ بجامع براثا، وبعث معه جماعةً من الشُّرَط، فخطب خطبةً قصيرةً، ولم يذكر ما جرَتْ به العادة من فضائل عليٍّ رضوان الله عليه، فرُجِمَ بالآجُرِّ، وأدْمَوا وجهَه، ونزل وصلَّى ركعتين خفيفتين، وحماه الشُّرَطُ، وإلا قُتِلَ، وبلغ القادرَ فعزَّ عليه، وأحضرَ الشريفَ المرتضى وأبا الحسن الزينبي والأشرافَ، فأنكر عليهم، وكتب كتاباً عامًّا إلى جلال الدولة، والوزير أبي علي بن ماكولا، وإلى الإسْفَهسلارية يقول من جملته: إذا بلغَ الأمرُ، أطالَ اللهُ بقاءَ صاحب الجيش إلى الجرأة على الدين، وتسليط الأوباش على الدولة، فلا صبرَ دون ما تُوجِبُه الحميَّةُ والسياسة، وقد بلَغَنا ما جرى بالأمسِ بجامع بَرَاثا الذي يجمع الكفَرةَ والزنادقةَ ومَنْ قد برئ الله [منه] [1] ورسوله، فصار أشبهَ شيء بمسجد الضرار، وقد ذكر خَطيبٌ بالأمس فيه ما جاءت به السُّنَّةُ، وقد كان الخطيبُ الماضي ـ قبَّحه الله ـ يقول بعد الصلاة على النبيِّ ﷺ: وعلى أخيه أميرِ المؤمنين مُكلِّم الجُمْجُمة، ومُحيي الأمواتَ البشريَّ الإلهيَّ. فلو كان عليٌّ حيًّا لقتَلَ قائِلَه، كما فعلَ في الغُواةِ أمثالِ هؤلاء الغوغاء الجُهَّال، والعملِ على الركوب في الجمعة الآتية بالعساكر، وإقامةِ الدعوة بالخطبة الإسلامية على ما جرَتْ به العادةُ في الجوامع والمنابر، فإنَّ هؤلاء الشِّيَعَ قد درسوا الإسلام، وقد بقيت منه بقيةٌ، وإن لم يُدفَع هؤلاء الزنادقة وإلا ذهبتِ البقية، وذكر كلاماً في هذا المعنى.

---

(١) هذه الزيادة من (ف).

ولمَّا وقفوا عليه أشاروا بأن لا تُقام خطبةٌ بجامع بَرَاثا خوفاً من الفتنة، وتأهُّبِ الأحداث والسُّفهاء، وامتنع شيوخُ الشِّيعة من الحضور، وبَطَلتِ الخطبةُ في تلك الجمعة[١].

وانحدرَ جلالُ الدولة مع الأتراك إلى واسط، وبها أبو كاليجار والدَّيلم، فلم يقدِرْ عليها.

وفيها قُلِّد القضاءَ أبو عبد الله الحسين بن علي بن ماكولا، وخُلِعَ عليه، وقُرئ عهدُه بجامع الرُّصافة وجامع المنصور، وحضر المرتضى وشيوخُ الشيعة إلى دار الخليفة، وسألوه الصَّفح، وأنَّ ما بدا من الجُهَّال، وقالوا: لا ينبغي أن يُخلى هذا الجامع من خطيب، فأذن لهم في ذلك بعد أن عُمِلَتْ خطبةٌ ووقفَ عليها القادرُ، وأعفاهم الخطيبُ من دَقِّ المنبر بعقب سيفه؛ لأنهم لا يَرون ذلك، وكانوا قبل هذا كَبسوا دارَ أبي تمام بالمشاعل على أنهم لصوص، وأخذوا كلَّ ما كان فيها، وما انتطَحَ فيها عنزان.

ولم يحجَّ في هذه السنة من العراق أحد.

وجهَّز صاحبُ مصر الحجَّ من مصر.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن إبراهيم

ابن إسماعيل بن الحسين بن أبي الجِنِّ، أبو القاسم، العلوي، الدمشقي، كان فاضلاً جليلاً، وكانت وفاته بدمشق، فأوصى أن يُحمَلَ تابوتُه إلى الكوفة فيُدفنَ في المشهد، فحُمِلَ.

[وفيها تُوفِّي]

الحسن بن أبي الهُبَيش[٢]

أبو علي، الكوفي، الزاهد، لم يكن في زمانه أعبدَ منه، دخل عليه الوزير [أبو القاسم بن] المغربي، فقبَّل يده، فقيل له في ذلك، فقال: كيف لا أُقَبِّلُ يداً ما امتدَّتْ قطُّ إلا لله تعالى.

---

(١) ينظر المنتظم ١٥/ ١٩٧ ـ ٢٠٠.

(٢) المنتظم ١٥/ ٢٠٢ .

وقال أبو عبد الله محمد بن علي العلوي: بِتُّ عنده ليلةً فلم أتمكَّنْ من النوم؛ لكثرة البَقِّ وهو قائمٌ يُصلِّي، فلا أدري أَمُنِعَ البقُّ منه أم صبرَ عليه؟ ورأيتُ مئزره قد انحَلَّ وسقط عن كعبه، ثم استوى وعلا إلى سُرَّته، فلا أدري أرتفع المئزرُ أم طالَتْ يدُه حتى أعادته؟ ولمَّا مات بنى عليه أهل الكوفة قُبَّةً، وقبرُه بها ظاهرٌ يُزار[١].

[وفيها تُوفِّي]

صالح بن مِرْداس[٢]

أسد الدولة، ويُعرَف بابن الزَّوقلية.

قال هلال بن الصابئ: في هذه السنة جهَّزَ صاحبُ مصر جيشاً مع القائد أنوشْتِكين الدِّزْبِري التركي أمير الجيوش؛ لقتال صالح وحسان بن المُفرِّج بن الجراح، وكانا قد جمعا الجموعَ، واستوليا على الأعمال، وانتَهيا إلى غزَّة، فلمَّا بلغهما خبرُ الدِّزْبِري انصرفا من بين يديه وتبِعَهما إلى الفجاوين أسفل عقبة فِيق واقتتلوا، فانهزم حسان بن المُفَرِّج، وقُتِلَ صالحٌ وابنُه الأصغر، وبعث الدِّزْبِري برأس صالح إلى مصر، وأُفلِتَ نصرُ بن صالح الأكبر إلى حلب، واستولى الدِّزْبِري على الشام، ونزل دمشق، وكتب إلى صاحب مصر كتاباً مضمونه: إلى سيدنا ومولانا، ونوضح للعلوم الشريفة أنه كان قد عرف اصطناع الدولة لآل الجرَّاح، ومقابلتِهم إحسانهَا بسوء الاجتراح، وكان أخلقَهم بالشُّكر لما أولاه حسان، وأحقَّهم بالكفِّ عن الإساءة إذ لم يكن منه في الطاعة إحسان، ولكن أبى إلَّا طبعَه اللئيم، ومعتقدَه الذميم، وكم له من غَدْرةٍ في الدين واضحة، ومَرْزِئةٍ في أموال المستضعفين قادحة، وأمَّا صالح بن مِرْداس زعيمُ بني كلاب فإنه اتَّفق مع حسان مُدِلًّا بحدِّه وحديدِه، مُجلِباً على الدولة بعد إحسانها إليه بعمده وعديدِه، فتوامرا على الفساد، وتَوازرا علة العِناد، ونهبا البلاد، وكان صالحٌ أشدَّهما كفراً، وأعظمَهما أمراً ومكراً، ووافى الملعونان الأقحوانة الصغرى عند

(١) بعدها في (م) وحدها زيادة: ويُتبرَّك به.

(٢) تنظر مصادر الترجمة في السير ١٧/ ٣٧٥.

شاطئ كفر الأردن، ووقعتِ الحرب، واشتدَّت بالطعن والضرب، فانهزم حسان مفلولاً، والعاقبةُ للمتقين، ومَنْ أصدقُ مِنَ الله قيلاً. وأمَّا الخائن صالح فلم يزَلْ يواصل الحملات حتى أتعسَ اللهُ جَدَّه، وأخذ سيفُ الله منه حَدَّه، فخرَّ صريعاً، قد أزهق الله نفسَه، وأخبَثَ مغرسَه، وغنِمَ المجاهدون سيفَه وفرسَه، وأنفذوا إلى الحضرة رأسَه، وقُتِلَ عامةُ أصحابه ممن كفر النِّعمةَ وفجر، ولم يُقْتَل من الأولياء الميامين عليه غيرُ ثلاثة نفر.

والدِّزْبِري أنوشْتِكين لقبه منتخب الدولة، وقيل: مصطفى الدولة، مظفر الدين، مدحه ابن حَيُّوس في هذه الوقعة بأبيات: [من الكامل]

هَلْ للخليطِ المستقلِّ إيابُ ... أمْ هَلْ لأيامٍ مضَتْ أعقابُ

يا مَيُّ هَلْ لدنوِّ دارِكِ رجعةٌ ... أمْ للعتابِ لديكمُ إعتابُ

لا أرتجي يوماً سُلوِّي عنكمُ ... هيهاتَ سُدَّتْ دونَه الأبوابُ

أوصابُ جسمي من جنايةِ بُعدِكُمْ ... والصبرُ صبرٌ بعدكُمْ أوصابُ

ولمصطفى الملكِ اعتزامُ المصطفى ... لمَّا أحاطَ بيثرِبَ الأحزابُ

يومان للإسلامِ عزَّ لَدَيْهِما ... دينُ الإلهِ وذلَّتِ الأعرابُ

طلبوا العُقابَ ليسلَموا بنفوسِهِمْ ... فابتزَّهم دونَ العُقابِ عِقابُ

واستشعروا نصراً فكانَ عليهمُ ... وتقطَّعَتْ دونَ المُرادِ رِقابُ

كانوا حديداً في الورى لكنَّهُمْ ... لمَّا اصطَلَوا نارَ المُظَفَّرِ ذابوا

مَنْ يُبلِغِ الأتراكَ أنَّ أميرَهُمْ ... بفَعالِهِ تتجمَّلُ الأنسابُ

وقد أخطأ ابن حَيُّوس في التشبيه غايةَ الخطأ، والله أعلم، والعُقاب عُقاب فِيق.

ولمَّا انهزم شِبلُ الدولة نصرُ بن صالح إلى حلب طَمِعَ صاحبُ أنطاكية في حلب، فجمع الرومَ، وسار إليها، وأحاط بها، فكبسه نصرٌ وأهلُ البلد، فقتلوا مُعظمَ أصحابه، وانهزم هو إلى أنطاكية في نفرٍ يسير، وغنِمَ أموالَهم وعسكرَهم. وقيل: كبسه على إعزاز، فغنم منه أموالاً عظيمةً.

علي بن عيسى بن الفرج[١]

أبو الحسن، الرَّبَعي، صاحب أبي علي الفارسي، ولد سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة، وقرأ الأدب ببغداد على السِّيرافي، وخرج إلى شيراز، فدرس بها النحو على الفارسي عشرين سنة، ثم عاد فأقام ببغداد باقي عمره.

خرج يوماً يمشي على جانب الشطِّ، فرأى الرضيَّ والمرتضى في سفينة ومعهما عثمان بن جني، فصاح: من أعجب أحوال الشريفين أن يكون عثمانُ جالساً في صدر السفينة، وعليٌّ يمشي على الحافَة. فضحكا وقالا: بسم الله.

وكان فاضلاً، فكان أبو علي الفارسي يقول: قولوا له: لو سِرْتَ من الشرق إلى الغرب لم تجد أحداً أنحى منك.

وكانت وفاته عن اثنتين وتسعين سنة، ودُفِنَ جوار معروف في المُخرِّم. قال ابن خيرون: لم يتبع جنازته سوى ثلاثة أنفُس.

السنة الحادية والعشرون وأربع مئة

فيها في يوم عاشوراء علَّق أهلُ الكَرْخ المُسوح، وعطلوا البيوع والشراء؛ رجوعاً إلى العادة الأولى، وأطمعهم بُعدُ[٢] الأتراك، فقامت الفتن، وقُتِلَ بين الفريقين جماعة.

وفيه خُطِبَ للأمير أبي سعيد مسعود بن محمود بن سُبُكْتِكين بعد والده بأرمينية والأطراف، ولقبه شهاب الدولة.

وفي صفر وردتِ الأخبارُ إلى الأجلِّ العادل أبي منصور بشيراز أنَّ مسعود [بن محمود بن سُبُكْتِكين] وصل [إلى] أصبهان، وانهزم علاء[٣] الدولة بن كاكويه[٤] من بين

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ١٧، والمنتظم ١٥/ ٢٠٣، ومعجم الأدباء ١٤/ ٧٨ ـ ٨٥. وينظر السير ١٧/ ٣٩٢.

(٢) في (م١): بعض، وهو تحريف، والمثبت من باقي النسخ والمنتظم ١٥/ ٢٠٤ والخبر فيه.

(٣) تحرف في (خ) و (ف) إلى: عماد، والمثبت من (م) و (م١).

(٤) تحرف في (ف) إلى: باكويه، والمثبت من باقي النسخ.